المجلة السياسية والدولية

اسم المقال: مفهوم الإيديولوجية عند عبد الله العروي مقاربة تحليلية
اسم الكاتب: م.د. محمد هاشم رحمة البطاط
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2293
تاريخ الاسترداد: 2025/05/08 02:47 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من الصفحة الخاصة بالمجلة السياسية والدولية على موقع المجلات الأكاديمية العلمية العراقية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

مفهوم الإيديولوجية عند عبد الله العروي
مقاربة تحليلية

م.د. محمد هاشم رحمة البطاط(*)

- **المقدمة:**

لقد شكل مفهوم الايديولوجية أحد أهم المفاهيم التي يعتريها الجدل حين السعي لكشف دلالاتها وسياقاتها، وربما يصح القول بأنه من أكثر المفاهيم التي كلما أُريد إعادة تفكيك منظومة فكرية معينة، أو سياق تاريخي لتيار أو مدرسة معرفية ما، كلما جرى الرجوع إليه بغية تشريحه وإعادة فهم ملابسات استخدامه؛ بوصفه المدخل الأساسي للتعاطي الابستمولوجي في حقل الفكر السياسي، وهذا ينطبق عليه بغض النظر عن الكيفية التي يتم وفقها الانطلاق في تحليله، سواء بعدّه مفهوماً صار قديماً وأضحى يشكل حاجزاً من الدوغما على مستخدميه، أو بوصفه كشفاً عن دلالاتٍ ناظمةٍ لعملية تفكير جماعة إنسانية معينة، أو ايٌ من الدلالات الأخرى لهذا المفهوم، الأمر الذي قاد إلى مزيدٍ من الاكراهات المعرفية التي حدت الكُتاب والمفكرين إلى إعادة مقاربته كلٌ حسب مرجعيته الفكرية ومنهجه المعرفي.

مثّل المشروع الفكري الذي قدّمه المفكر المغربي عبد الله العروي (ولد عام ١٩٣٣م)(**) أحد المشاريع التي آمنت بإلزامية العودة إلى مفهوم

---

* تدريسي في كلية العلوم السياسية –الجامعة المستنصرية.

* * مفكر مغربي ولد في مدينة أزمور المغربية عام ١٩٣٣م، تلقى تعليمه في العاصمة الرباط، ثم أكمل تعليمه العالي في جامعة السوربون في فرنسا، عن إطروحته للدكتوراه التي حملت عنوان "الإصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية ١٨٣٠-١٩١٢م" أصدر الكثير من المؤلفات التي جاوزت الثلاثين، من أهمها "الإيديولوجية العربية المعاصرة" (١٩٦٧م) و" العرب والفكر التأريخي" (١٩٧٣م) و"أزمة المثقفين العرب" (١٩٧٤م) و "مفهوم الإيديولوجية" (١٩٨٠م) و "مفهوم الدولة" (١٩٨١م) و "مفهوم الحرية" (١٩٨١م) و "ثقافتنا في ضوء التاريخ" (١٩٩٢م) و "مفهوم العقل" (١٩٩٦م) و "السنة والإصلاح" (٢٠٠٨م) ، بالاضافة الى مجموعة روايات أبرزها "اليتيم" (١٩٧٨م)، لم يكتفِ العروي بالعمل الفكري فحسب، وإنما إنخرط بالعمل السياسي حين إنضمّ الى حزب الإستقلال الذي كان يتزعمه علال الفاسي، لكنه سرعان ما وجد نفسه ميالاً للجناح اليساري، فإنسحب من الحزب، وبدأ يدعو وينظّر للسياسة بوصفه= =يسارياً/ماركسياً (امحمد جبرون، إمكان النهوض الإسلامي، مراجعة نقدية في المشروع الإصلاحي لعبد الله العروي، ط١، د.ت، نشر مركز إنماء للبحوث والدراسات، د.م، ص١٢ وما بعدها)

الإيديولوجية وإعادة ترسيم دلالاته ومجالات استخدامه ومراحله التي تطور خلالها وصيرورته التاريخية، ومن ثم البحث عن المؤشرات والدواعي التي يمكن عبرها تحديد ما إذا كنا ما زلنا بحاجة إلى استخدام هذا المفهوم أم انه ينتمي لتلك المفاهيم التي تجاوزها العقل المعرفي المعاصر، أو على الأقل، حريٌ به أن يستخدمها بحيثيةٍ معينة، من هنا سيهدف هذا البحث إلى تقديم مقاربة تحليلية لمحاولة العروي لدراسة مفهوم الإيديولوجية وبيان وجهة نظره فيه، وطريقته الخاصة التي أراد من خلالها إعادة موضعة المفهوم ضمن سياق رؤيته لخاصة، لا سيما في ظل إيمان العروي بأن المفاهيم النظرية هي المدخل الأساسي لأية مراجعة معرفية، وكذلك هي المؤشر الأساس على طريقة تفكير الجماعات الإنسانية المتباينة في تصوراتها ورؤاها، وينطلق البحث من فرضية مفادها أن مفهوم الإيديولوجية قد حظي بمكانة خاصة ضمن المشروع الفكري الذي قدمه عبد الله العروي الذي إعتقد أنه لا يمكن فهم السياق التاريخي لتطور الأفكار، ومن ثم تقييمها، إن لم تتم عملية دراسة هذا المفهوم وتقديم قراءةٍ خاصة تجاهه، وبيان ما له وما عليه، وقد إعتمد البحث على منهج تحليل المضمون إبّان دراسة الأفكار التي طرحها العروي بهذا الصدد.

ومن أجل الإحاطة بتلابيب الموضوع كافة، فقد تم تقسيم البحث إلى المباحث الآتية:

المبحث الأول: السياق الدلالي لمفهوم الإيديولوجية ومجالات إستعماله عند عبد الله العروي.

المبحث الثاني: التحقيب المرحلي لمفهوم الإيديولوجية عند عبد الله العروي.

المبحث الثالث: مفهوم الإيديولوجية والنقد السياسي عند عبد الله العروي

(المبحث الأول)

وفي عام ١٩٩١م كلّفه الملك المغربي "الحسن الثاني" بالتوجه إلى أوربا لإقناع قادة اليسار الاوربي بالكف عن حملتهم الإعلامية والسياسية ضد المغرب، فوافق العروي على هذه المهمة بدافع الوطنية على حد قوله، فسافر وإلتقى بالعديد من اليساريين المنتقدين للسياسة المغربية وعلى رأسهم "جيل بيرو" مؤلف كتاب " صديقنا الملك" (ينظر سيرته الذاتية على موقع المكتبة المفتوحة، على الانترنت: www.pdf2arab.blogspot.com.pdf

السياق الدلالي لمفهوم الإيديولوجية ومجالات إستعماله عند عبد الله العروي

(المطلب الأول)

السياق الدلالي لمفهوم الإيديولوجية عند عبد الله العروي

منذ أن نحتَ الفرنسي إنطوان لويس دستاوت دي ترايسي (١٨٣٦-١٧٥٤م) كلمة الإيديولوجية **Ideology** مازجاً فيها بين كلمتي "**Idea**" والتي تعني فكرة، و "**Logy**" وهي الإلحاقة التي تستخدم للإشارة إلى العلوم كالقول **Biology** للتدليل على علم الأحياء، أو **Psychology** للدلالة على علم النفس وهكذا، ، منذ تلك اللحظة التي عنى فيها دي ترايسي بالإيديولوجية العلم الذي يُعنى بدراسة الأفكار، حتى بدأ الاهتمام منقطع النظير بهذا المفهوم الذي تطورت دلالاته كثيراً، حتى ندَرَ أن نجد مدرسةً فكرية لم تقدم رؤيتها الخاصة تجاهه[١]، ولئن كان دي ترايسي قد هدَفَ إلى تقديم منهجيةٍ جديدةٍ في كتابه **The Elements of Ideology** "عناصر الإيديولوجية"، منهجيةٌ تتقوم على أهمية ترتيب الأفكار وبيان أسسها وعناصر كيما تسهل عملية فهمها وتقييمها بشكل أصوب وأنجح، بيد أن هذا المفهوم سرعان ما بدأ يكتسي أشكالاً جديدةً من الدلالات حسب السياقات التأريخية التي جرى التعامل فيها معه، بالإضافة إلى تباين وجهات النظر بين المفكرين المختلفين أصلاً بصدده[٢]، إذ لم يكتف الباحثون في توْظيف هذا المفهوم في دراسة الأفكار، بعدّه الميكانزم/الآلية التي تُستخدم في تحليل الأفكار وإعادة تقييمها، وإنما تمت محاولة إعادة توجيه لبوصلة البحث الدلالي للمفهوم نفسه، أي إليه وليس من خلاله، بعبارة أخرى، منذ لحظة دي ترايسي ولمدة ليست بالقصيرة تم أخذ مفهوم الإيديولوجية كمسلمةٍ لا مشكلة معها، ولا وقفة تجاهها، بل بإعتبارها منهجية دراسة، أو علم منهجي يسهم في تحليل الأفكار وبيان نقاط القوة فيها والضعف، لكن تطور الدراسات

---

١) (Karl Joseph, An Introduction in the concept of Ideology, a comprehensive study, 2nd Edition, New York publishing Institution, 2000, p25.

٢() أحمد يوسف الفرغلي، العقل التاريخي والعقل المطلق، ط٢ ٢٠٠٦م، دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص١٤.

الإنسانية، والأزمات الفكرية التي عصفت بالأمم والباحثين على حدٍ سواء، دفعت بالكثيرين إلى الرجوع إلى مفهوم الإيديولوجية نفسه، ودراسته هو، لا توظيفه في دراسة غيره، وربما يمكننا القول أن هذا الأمر جاء نتيجة إفتراض البعض بإحتمالية أن يكون لهذا المفهوم يدٌ في تسبيب الأزمات الفكرية لا في حلها.

من هذه النقطة بالذات يمكننا أن نفهم بسهولةٍ السياقَ الدلالي للمفهوم من وجهة نظر عبد الله العروي، الذي ما إنفك يركز على هذا المفهوم حتى أنه خصّه بكتاب مستقل بعنوان "مفهوم الإيديولوجية" ضمن سلسلة كتب المفاهيم التي قدّمها[٣]، إذ عَمَدَ العروي إلى إعادة دراسة هذا المفهوم، وتشريح دلالاته، إيماناً منه بأن ذلك يسهم، إلى حدٍ ما، في تسهيل مهمة الخروج من الانسداد الفكري الذي يهيمن على العقل العربي المعاصر، وفي مَعْرَض بيانه للسياق الدلالي للمفهوم، فإنه يؤكد على "أن كلمة إيديولوجية دخيلةٌ على جميع اللغات الحية، تعني لغوياً، في أصلها الفرنسي، علم الأفكار، لكنها لم تحتفظ بالمعنى اللغوي، إذ إستعارها الألمان وضمنّوها معنى آخر، ثم رجعت إلى الفرنسية، فأصبحت دخيلة حتى في لغتها الأصلية"[٤]، وبما أن المفهوم لم يحتفظ بمعناه الدلالي الذي إنطلق في أساسه منه بوصفه علماً للأفكار، فلا يمكن عندها أن نبقى متشبثين بأن هذا المفهوم عبارة عن مفردة حيادية في تعبيرها حالها حال سائر المفردات المعبرة عن العلوم، كأن نقول علم الكيمياء أو الفيزياء أو الرياضيات، فالمفردات الأخيرة تعبر عن موقف حيادي **Neutral Attitude** ، بينما هذا لا ينطبق على الإيديولوجية، إذا لا يمكن النظر إليها كعلمٍ حيادي خالٍ تماماً من المعيارية **The Criterion**، ولعل هذا مرجعه إلى أن موضوع هذا العلم هو

---

[٣]() وهي كالآتي "مفهوم الايديولوجية" و "مفهوم العقل" و "مفهوم الحرية" و "مفهوم الدولة" و"مفهوم التأريخ"، وقد أشار العروي أن تقديمه لسلسلة المفاهيم هذه متأتي من إيمانه بأن كل كثير من المشكلات الفكرية، لا سيما مشكلة التخلف التي تهيمن على العالم العربي تكمن في فهمنا التقليدي للمفاهيم، الأمر الذي حداه إلى أن يعيد قرائتها من جديد تمهيداً لموضعة جديدةٍ لها عند العقل العربي.

ينظر: عبد الله العروي، مفهوم الحرية، ط٥ ١٩٩٣م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص٥.

[٤]() عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، ط٥ ١٩٩٣م، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص٩.

الأفكار، وبما أن الأفكار عالم يندر أن يخلو من النزوع المعياري/التقييمي، فلا بد أن يثار حول حياديته الشك، ويدور حول عدم معياريته الارتياب.

وما يؤكد وجهة النظر هذه، هو ما ذهب إليه العروي نفسه حين شدّد على أن هناك مشكلة واجهت الكُتاب العرب وهم يرومون ترجمة هذا المفهوم للغة العربية، فعبارات من قبيل "منظومة فكرية" و "عقيدة" و "ذهنية" وغيرها، تشير فقط إلى معنى واحد من معاني الإيديولوجية لا إلى كل معانيها، وحين يسعى العروي ليدلو بدوله في هذا الإطار فإنه يشير إلى أن اقرب كلمةٍ لعبت في المجال الإسلامي دوراً كالدور الذي لعبته الإيديولوجية، هي كلمة "الدعوة في الإستعمال الباطني" ومع ذلك يؤكد أن من المستحيل إحياؤها والإستعاضة بها عن كلمة إيديولوجية المنتشرة[٥]، وقبل أن يعمد العروي إلى إكمال بيانه لدلالة مفهوم الإيديولوجية فإنه يقترح الإستغناء عن مفردة "إيديولوجية" بمفردة "أدلوجة"، مسبباً ذلك بعدم مطابقة إيديولوجية لأي وزن عربي في ميزان الصرف اللغوي، بينما أدلوجة على وزن أفعولة، وعندها يمكن أن نجمعها أداليج أو أدلوجات، وأدلجَ إدلالجاً، ودّلجَ تدليجاً، وأدلوجي تُجمع أدلوجيون[٦].

على الرغم مما يمكن أن يُلاحظ في محاولة العروي هذه في تعريب كلمة إيديولوجية؛ بغية منحها مكاناً صرفياً داخل المعجم العربي، فإن العروي نفسه حين عنوَنَ كتابه عنها أسماها "الإيديولوجية" وكان الحريُ به أن يكون أول مطبقٍ لفكرته التي يقترحها، فيسمي كتابه "مفهوم الأدلوجة" بدلاً من "مفهوم الإيديولوجية"!! فضلاً عن إعتقادنا بعدم جدوائية تعريب المفردات التي في أصلها غير عربية، فحتى اللغة العربية متأقلمة تماماً مع وجود مفردات "ممنوعة من الصرف" لوجود العديد من الكلمات غير القابلة للدخول ضمن ميزان الصرف العربي[٧]، بالإضافة إلى أن الكلمات التي تَفِد من

---

[٥]() المصدر السابق والصفحة، ويبدو أن حصر العروي لدلالة كلمة الدعوة (في الاستعمال الباطني) يعني حضوراً لما قدمه أبو حامد الغزّالي من رؤية لآلية الدعوة الباطنية في كتابه "الرد على الباطنية"، وما يرجح إفتراضنا هذا هو ما سيأتي لاحقاً من إستحضار العرويُ للغزالي حين يحقب مراحل مفهوم الايديولوجية.

[٦]() المصدر السابق والصفحة.

[٧]() يوسف السامرائي، مقدمة في علوم اللغة العربية، ط١ ١٩٨٤م، نشر دار النرجس للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد،ص ١٤٢.

لغةٍ ما إلى لغة أخرى ليس بالضرورة إقحامها إقحاماً في معجم اللغة الوافدة إليها، وثمة سوابق على هذا الأمر، فكلمة من قبيل "تكنولوجية" هي ليست تعريباً لكلمة Technology الانكليزية، وإنما هي نفسها مع تعديل في بعض حروفها تسهيلاً لنطقها بلسان العربي لا غير، ومع ذلك هي تُستخدم بشكل يومي، وتكتب في الكتب والمجلات والصحف دون أن تسبب أي إرباك لدى المتلقي، وعلى هذا الأساس لا نعتقد بجدوائية محاولة العروي هذه على الصعيد اللغوي.

أما في بيانه للسياق الدلالي لمفهوم الإيديولوجية على الصعيد الاصطلاحي، وبما أن هذا السياق سيتضح بشكل أكبر حين تتم مقاربة مجالات استعمال المفهوم عروياً، فإن بالإمكان الاكتفاء بالإشارة إلى أن العروي يتعامل مع الإيديولوجية بوصفها نظرة نسبية ترتكز على محوري التأريخ والمجتمع تلقي بأفقها على وعي الذات الجمعية ونظرتها لكل ما هو محيط بها[٨]، إذ تبدو نسبية الإيديولوجية ومعياريتها الواضحة في كونها لا تنعتق من أُساري "التاريخ" و "المجتمع"، وعلى هذا الأساس هي نظرة موغلة في النسبية، لا تعرف للإطلاق طريق، فالتاريخ الذي يهتم العروي به كثيراً يكشف عن "زمنٍ ما" و "لحظةٍ ما" ، هذا ما يؤكده العروي حين يشير إلى أننا ندرس إيديولوجية "عصر النهضة ونعني بها النظرة التي كان يلقيها رجل النهضة إلى الكون والمجتمع والفرد، والتي يندرج تحت قواعدها العامة كل تقرير أو حكم صدر في ذلك العصر"[٩]، إذ لا يمكن أن تكون الإيديولوجية بلا زمنٍ معين، فلا إطلاقية فيها، نفس الشيء يقال بالنسبة للمجتمع، أو أية جماعة من الجماعات، أي أن هذه الجماعة تنظر إلى القضية نظرة معينة، نظرة إيديولوجية، فبغض النظر عن التقييم الايجابي أو السلبي الذي يمكن أن يُنظر به للأيديولوجية بذاتها، فإن "مما يعترف به العروي أن الإيديولوجية لما كانت تتعاطى مع الأفكار، وبما أن الأخيرة لا تتنفس إلا في محيط الاختلاف والتباين

---

[٨] (Stephen Fisherman , The Development of Arab Thought, 1st Edition , RNGD Coporation, H.Solmon, London, 2000, p53

[٩] عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص٩-١٠.

والنسبية، فمما لا شك فيه أن الجماعات والمجتمعات الإنسانية ستكون نظرتها مختلفة ونسبية من خلال الإيديولوجية لأي شيء"( ).

ويؤكد عبد الله العروي على أُسية التأريخ والمجتمع في السياق الاصطلاحي للإيديولوجية من خلال ارتباط الأخير إرتباطاً عضوياً بهما، "فكلما نظرنا إلى مسألة مطابقة الفكر للواقع في إطار علاقة الفكر الفردي بالحق، نفينا الحاجة إلى مفهوم الأدلوجة [الإيديولوجية]، أي كلما حصرنا المفهوم في نطاق المنطق ذاب وإنفسخ، إن مفهوم الأدلوجة [الإيديولوجية] لا ينتعش ويتبلور إلا في نطاق نظرية إجتماعية ونظرية تأريخية"( ). ولعل تأكيد العروي على[1] المنحى الإجتماعي/الانصهار الفردي في الجماعة هو الذي دفع ستيفن فيشرمان إلى ذكر "الذات الجمعية" في تشخيصه للسياق الاصطلاحية للمفهوم عند العروي كما أوردناه سابقاً.

ومع كل ما ذُكرَ سلفاً فإن دلالة المفهوم في فكر العروي لا يتضح بشكل شاملٍ ومتكامل إلا بعد بيان مجالات استعمال المفهوم عروياً.

(المطلب الثاني)

مجالات إستعمال مفهوم الإيديولوجية عند عبد الله العروي

قبل أن يتوسع عبد الله العروي في بيانه لمجالات إستعمال المفهوم، ذكر بشكل مختصر أن الأخير حين يستعمله هو، يعني به ثلاثة أشياء[2]( ):

١- ما ينعكس في الذهن من أحوال الواقع إنعكاساً محرفاً بتأثيرٍ لا واعٍ من المفاهيم المستعملة.

٢- نسق فكري يستهدف حجب واقع يصعب، وأحياناً يمتنع، تحليله.

٣- نظرية مستعارة لم تتجسد بعد كلياً في المجتمع الذي إستعارها، لكنها تتغلغل في كل يوم أكثر فأكثر، بعبارة أدق، إنها تلعب دور الإنموذج الذهني الذي يُسهل عملية التجسيد هذه.

---

[1]() منيرة بن فايز، عبد الله العروي والايديولوجية العربية المعاصرة، دراسة في الأفكار والنقد، ضمن كتاب "دراسات في الفكر العربي المعاصر، تحرير: يوسف بن محمد، ط١ ٢٠٠٧م، مركز الدراسات الإسلامية، عمان، ص٢٤١.

[1]() عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص٢٥.

[1]() عبد الله العروي، الايديولوجية العربية المعاصرة، ط١ ١٩٩٥م، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص٢٩.

يلاحظ في مجالات الاستعمال هذه أنها جميعها تشي بمأزق عدم مطابقة الواقع، ففي الاستعمال الأول ثمة إنعكاس مُحرف لتصورات الذات الجمعية/العقل الجمعي عن الواقع، مع تجلٍ فرويدي لحضور اللا وعي في عملية الانعكاس الذهني هذه، وفي الثاني أيضاً يحضر التباعد بين الفكر والواقع، بل قطيعة كبيرة، لان الفكر لا يعجز عن تصوير الواقع بشكل سليم، لأسباب خارجة عن هذا الفكر فحسب، بل أن المشكلة في الفكر ذاته انه يحجب الواقع، أو بصورة اقل تشدداً، يجعل من الصعوبة بمكان فهمه بشكل ولو تقريبي، وحتى في المجال الثالث يظهر دور التباعد هذا في كون الإنموذج الذهني يُغري الجماعة على التجسيد الواقعي، لكن ثمة مفاصلة بين الاثنين، ففي الوقت الذي لا تتجسد فيه النظرية المستعارة على الواقع، أي أن وجودها الذهني أوسع وأشمل من وجودها الخارجي/الواقعي، فإنها تستمر "ذهنياً" في صيرورتها التكاملية، في حين أن الواقع يبقى متأخراً عنها ومتخلف، لكنها ذهنياً تبقى في طرديتها المستمرة لتتحول من مسايرة "مع الواقع" إلى "مباعدة عنه"، فإذا أضفنا إليها "اللاوعي الجمعي"، ستتحول عندها إلى غاية تغوي بإنموذجها النظري الآخرين ليسعوا لتجسيدها، لكن التجسيد أمره مستحيل.

ومما يجدر تأكيده هنا أن تقسيم العروي لهذه الاستعمالات الثلاثة لا يعني أنها متوازية رياضياً، بمعنى آخر، لا يعني ذلك عدم تداخلها ببعضها بحيث نجد لدى هذه الجماعة أو تلك تمَثُلاً لأكثر من مجال، إن لم يكن لجميع المجالات المطروحة، فعالم الأفكار، خاصة في علاقتها بالواقع، وبالأخص علاقتها بالواقع السياسي، غالباً ما تكون معقدة ومتشابكة.

بيد أن العروي لا يكتفي بهذا التقسيم الثلاثي لمجالات إستعمال المفهوم، حين يؤكد على وجود إستعمالات أوسع له، ولكل إستعمالٍ ميدانه الخاص به، وحسب الآتي:

الإستعمال الأول: يقول العروي "يستعمل هذا المجال للمفهوم في ميدان المناظرة السياسية، من الطبيعي حينئذٍ أن يكتسي صبغةً سلبية أو ايجابية حسب هوية المستعمل، يرى المتكلم أدلوجته [إيديولوجيته] الخاصة عقيدةً تعبر عن الوفاء

والتضحية والتسامي، ويرى في أدلوجات [إيديولوجيات] الخصوم أقنعة تتستر وراءها نوايا خفية لا واعية يحجبها أصحابها حتى على أنفسهم لأنها حقيرة لئيمة، إن أدلوجة [إيديولوجية] المتكلم تنير الطريق فتهدي الخلق إلى دنيا الحق والعدل، بينما تعمي أدلوجة [إيديولوجية] الخصمِ الناسَ عن سبيل الحقيقة والسعادة. إن دارس المفهوم في الحقل السياسي لا يحكم عليه من زاوية الحق والباطل، وإنما يصفه فقط بالنظر إلى فعاليته، إلى قدرته على إستمالة الناس والاقتراب من أهدافه"[٣].

ربما يمكن القول أن أهم مجال لاستعمال مفهوم الإيديولوجية هو المجال السياسي، فالأخير هو الذي يرتبط بالإرادة السياسية في المجتمع، وهي "الإرادة العليا The Supreme Willing" التي تعلو رؤيتها على غيرها من الإرادات المتنازعة في المجتمع الإنساني، بالإضافة إلى أن السياسي، أياً كانت مرجعيته الفكرية، يستقوي بالإيديولوجية ويوظفها في عمله سواء في الوصول إلى السلطة أو في البقاء فيها[١]، ولما كان ميدان الفكر السياسي وثيق الصلة بمفهوم الإيديولوجية، فإن الأخير أسهم، إلى حد كبير، في ترسيم الكثير من الاتجاهات القديمة والحديثة والمعاصرة في الفكر السياسي، لا سيما في نطاق العلاقة بين مدى إرتباط الفكرة السياسية بالواقع ودرجة إقترابها منه أو ابتعادها[١]، كما أن الفكر السياسي أسهمْ بدوره في إنتاج وتطوير العديد من التصورات والرؤى والمجالات الإيديولوجية، الأمر الذي دفع ديفيد والتر أن يقول " رغم إرتباط مفهوم الإيديولوجية بالعديد من العلوم الإنسانية كالاجتماع والاقتصاد والانثروبولوجيا وعلم النفس، إلا أن علاقته وثيقته جداً بالسياسة، لا سيما حقل الفكر السياسي، بل يمكن عدّ الإيديولوجية أحد أهم مفاهيم الفكر السياسي الذي أنتجته القرون المتأخرة"[١٦].

الإستعمال الثاني: يتحدد مجال الاستعمال الثاني في المجتمع، في أحد مراحله التأريخية، أي في سياق ثنائية "المجتمع/التاريخ"، من هنا يؤكد العروي على أننا في هذا

---

[١] عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص١٠.

[٢] (Dennis Crocker, The Relationship Between Politics and Ideology, A Historical Study, 3rd Edition , The House of Novas printing Home, London, 2008, p63.

[٣] (Ibid, p88

[٤] (David Walter , The Human Science , A theatrical Study, 1st Edition, The Center of Contemporary Dialogue- New Jersey, U.S.A 1999.p342.

الاستعمال ندرك المجتمع ككل، يتفق جميع أعضائه في الولاء لقيم مشتركة، ويستعملون منطقاً واحداً، فإذا درسنا أيديولوجية الخوارج، مثلاً، فإننا نبحث في الإيديولوجية التي تحكمت في أذهانهم وأذهان أعدائهم، وجعلتهم يهتمون بمشكلات محددة بين سائر المشكلات الممكنة، ويضعون سؤالاً دون باقي الأسئلة، ولا سبيل لإستخراج إيديولوجيتهم إلا بتأويل أعمالهم السياسية والأدبية[٧]، هنا يتأكد أكثر تركيز العروي على المجتمع، فالإيديولوجية ليست نطاق فردي، هي أُس ينتعش في المجال الجماعي، لكنه مجالٌ لا يقفز على التاريخ، وإنما يتأطر به ويتحدد، وهنا تكمن النسبية، ويمكن ترسيم رؤية العروي وفقاً للشكل الآتي:

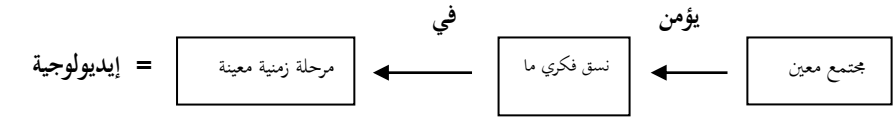

الإستعمال الثالث: يقول العروي "مجال الإستعمال الثالث هو مجال الكائن، كائن الإنسان المتعامل مع محيطه الطبيعي، والبحث فيه هو من قبيل نظرية الكائن، نجد في الماركسية تعارضاً بين المعرفة الأدلوجية [الإيديولوجية] والعلم الموضوعي: عندما تحدد الماركسية الأدلوجة [الإيديولوجية]، فإنها تحدد في الوقت ذاته الواقع والكائن، ولهذا السبب لا تنفصل فيها نظرية التاريخ عن نظرية المعرفة والكائن"[٨]، بعيداً عن التجلي الماركسي في معظم إستشهادات العروي؛ تماشياً مع ماركسيته، فإنه يعني بهذا المجال أن الإيديولوجية تستعمل في نظرة الإنسان لمحيطه وللكون، أي النظرة العامة للوجود، وهو ما يُعبَّر عنه أحياناً بـ "العلاقة بين الإيديولوجية والرؤية الكونية"[***].

الإستعمال الرابع: يشير عبد الله العروي إلى انه يريد بهذا الاستعمال " المجال المشترك بين المجالات الثلاثة السابقة، عندما ندرس تأثير أية أدلوجة [إيديولوجية]

---

[١]() عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص١١.

[١]() المصدر السابق والصفحة.

*** هذا التعبير غالباً ما يتم تداوله في مجال الدراسات المتعلقة بعلاقة الناظمة بين المنظومة الفكرية التي تجسد الإطار النظري لسلوك الإنسان، وبين رؤيته للوجود وللكون من قبيل نشأة الكون وبدايته ونهايته، ودور الإنسان في خارطة الوجود، وآلية الترتيب بين الايديولوجية والرؤية الكونية، يُنظر: محمد صادق ولايت: مقدمة في علم الكلام، ط١ ٢٠١٠م، نشر دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ص٢٦.

على الفكر، فإننا نبحث في الحدود الموضوعية التي ترسم أفق ذلك الفكر، والحدود من أنواع ثلاثة: حدود الإنتماء إلى أدلوجة [إيديولوجية] سياسية، وحدود الدور التأريخي الذي يمر به المجتمع ككل، وحدود الإنسان في محيطه الطبيعي"[١]، ففي هذا الاستعمال تتعانق الاستعمالات السابقة لتنتج مزجاً كُلياً من الفهومات المتكثرة للأيديولوجية، الأمر الذي يعني دفعاً نحو مزيد من الديناميكية التي يمنحها العروي لهذا المفهوم، والأخير لا يوحي، عروياً، كـ "مجرد عنوان كما هو الإسم لدى اللغويين، ولا فرضية كتلك التي يستخدمها الرياضيون، وإنما هو نظيمة (System) فكرية، بل هو تلك النظيمة في شكل محجر، لا يُدرك، خارج حالات الكشف، إلا بعد عملية الفك والتركيب وأثناء تلك العملية"[٢].

وعلى هذا يتأسس أن عملية الفك والتركيب التي يقدمها العروي لمجالات الاستعمال، هي التي تنتج لنا هذا الفهم الديناميكي للمفهوم، لا سيما وأنه يؤكد على أن الأخير دائماً ما يكون مزدوجاً، فهو وصفي ونقدي في الوقت ذاته، وصفي حين يعتقد الباحث لأية مسالة سياسية، على سبيل المثال، انه يقدم على وصفها وبيان تفاصيلها بكل دقة وأمانة، وايضاً هو نقدي حين يتكشف أن هذه الرؤية المنبثقة لا تعكس من الواقع الشيء الكثير[٣]، وكيما يُكمل العروي ترسيمه لمجالات استعمال مفهوم الإيديولوجية، يشدد على أن إزدواجية وعينا لهذا المفهوم تستتبع تأطيراً نظرياً متكاملاً يقدمه حسب الشكل الآتي[٤]:

الإيديولوجية	التفكير	المضمون	الوظيفة	المرجع	المجال	النظرية
قناع	وهمي	المجتمع	الإنجاز	المصلحة	المناظرة	النسبية
رؤية كونية	نسبي	الكون	الإدراك	التاريخ	اجتماعيات الثقافة	التاريخية
معرفة	آني	الحق	تظاهرة الكون	الجدل	نظرية المعرفة والكائن	الجدلية

[١] عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص١١.

[٢] عبد الله العروي، مفهوم العقل، ط٣ ٢٠٠١م، نشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

[٣] محمد علوي، الفكر العربي ومساراته في فكر عبد الله العروي، مجلة (أفكار) العدد ١٥، ٢٠١٠م، القاهرة، ص٢٨.

[٤] عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص١٢.

ومن اجل تحليل المضامين العامة التي تنطوي عليها ترسيمة العروي هذه، يمكن الإشارة إلى ذلك يتم وفقاً للآتي:

أولاً: الإيديولوجية كقناع: بمعنى أنها تشكل قناعاً على الإدراك تمنعه من الوصول إلى الحقيقة بشكلها الذاتي، وليس كصورة مشوهة عنها، إذ لا يمكن إيجاد مطابقة بين الفكر والواقع حين يكون التفكير "وهمياً"، خاصة في مجال المناظرة السياسية، وإن كانت لا تنحصر في هذا المجال فحسب، هذا الوهم يتعلق بالمجتمع وقضاياه كمضمون، وهي تهدف بشكل وظيفي/ أداتي إلى "الانجاز" وتحقيق الغايات السياسية، وتكمن مرجعيتها الأُسية في تحقيق "المصلحة"، وبالتالي هي لا تنعتق من أُسار "النسبية، فلا مجال للسمة الاطلاقية في هذا المجال، خاصة في السياق الاجتماعي– السياسي.

ثانياً: الإيديولوجية كرؤية كونية: في هذا المجال يتحدد مجال مفهوم الإيديولوجية كرؤية تحدد النظرة للكون، الرؤية الخاصة بالوجود ككل، أي طبيعة النظرة التي تنظر بها الذات إلى الوجود والكون، فهي تتعلق بالأحكام الصادرة "النسبية" التي يتم إصدارها وتقريرها بشأن "الكون"، وعلى هذا الأساس تكون وظيفتها عملية "الإدراك"، بيد أن هذا الإدراك، وكما مر سابقاً، لا يمكن أن يبتعد عن "التاريخ"، لان الأخير هو و "المجتمع/إجتماعيات الثقافة" يشكلا العنصرين الأساسيين في تحديد الخطوط العامة والمفاصل الرئيسة لترسيم مفهوم الإيديولوجية، وبهذا الشكل ندخل في النقطة الحرجة في تنظير العروي والمتمثلة بـ "التاريخانية"، إذ لا يمكن أن تخرج الفكرة أو أي مشروع خارج سياقاتها التاريخانية التي تحدد زمكانيتها وأوضاعها وأحوالها.

ثالثاً: الإيديولوجية كمعرفة: في هذا المجال تعمل المعرفة ضمن دالة "الآنية"، أي لحظة تحديد المؤشرات العامة للمعلوم عن المجهول بشكلٍ لحظي يتعلق بزمن المعرفة، لا خارجها، وكأن العروي يريد أن يقول أن المعرفة، في سياق الإيديولوجية، لا يمكنها أن تدعي أنها خارج "آنيتها" اللحظية، وبما أنها معرفة فإنها مرتبطة، بدرجات متفاوتة، بموضوعة "الحق" الذي تدعي كل معرفة انه يشكل مضمونها، وتكون وظيفة هذه المعرفة تقريب صورة "الكون" لدى الذات المُدرِكة، وهنا ندخل في حالة من

"الجدلية" في نظرية المعرفة والكون، ولعل تأكيد العروي على الجدلية في نظرية المعرفة متأتي من خلفيته الماركسي التي تنتعش بالجدلية كلما جرى التعامل مع قضايا المعرفة والوجود/الكون.

هكذا تتبدى لنا ديناميكية الرؤية غير التقليدية والتفصيلية التي حددها العروي لمفهوم الإيديولوجية، وهي ديناميكية حية يمكنها أن تدعي لذاتها أنها تنطوي على جدية في ترسيم مفاصل المفهوم ومسك تلابيبه، دون أن يمنع ذلك من الإشارة إلى أن المسار التطبيقي الذي سيعتمد عليه العروي في تفصيل هذه الرؤية قد طغت عليه النزعة الاختزالية، سواء في الحضور الماركسي الكثيف(***)، أم في غيره كما سيأتي مستقبلاً، غير أن الملاحظة المهمة التي لا ينبغي إغفالها هو الارتباط الوثيق بين السياق الدلالي لمفهوم الإيديولوجية عند العروي وبين مجالات استعمال هذا المفهوم، بعبارة أخرى، إن مراجعة الترسيمة التي قدمها العروي تشي بإمكانية إستخراج دلالة/إصطلاحية للمفهوم مع كل مجال استعمالي له، وعندها نكون أمام مجموعة متكثرة من الدلالات، وهذا يرجعنا للتأكيد على حيوية تحليل العروي وشموله من جهة، والى ديناميكية المفهوم وتنوعيته من جهة أخرى.

(المبحث الثاني)

التحقيب المرحلي لمفهوم الإيديولوجية عند عبد الله العروي

إعتقد العروي بأن الإيديولوجية، كمفهوم إشكالي ألقى بثقله على المحاولات الفكرية المعاصرة دافعاً إياها لإعادة مقاربته لتحليله، لم يكن موجوداً منذ بداية تشكيل المدارس الفكرية الإنسانية التي نشأت من زمن بعيد[٣]، لا يعود هذا

* *** كثيراً ما يُرجع عبد الله العروي قراءه لماركس، ويحيل إليه في اغلب التحليلات سواء بشكل صريح أو بشكل ضمني،ربما يمكن للعروي أن يدافع عن نفسه في أن ذلك مرجعه إلى أن "ماركس هو الذي أعطى للادلوجة [الايديولوجية] الأهمية التي تكتسيها اليوم في كل ميادين البحث" (عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص٢٩) بيد أن ذلك لا يكفي تبريراً لهذا الحضور الكثيف لماركس، ويمكن افتراض أن الخلفية الماركسية للعروي هي التي تمنعه عن التحرر من ماركس سواء بشكل شعوري أم بسواه.

[٣]() موسى طرابلسي، إشكالية الفكر العربي المعاصر، دراسة لأبرز الاتجاهات، ط١ ٢٠١٤م، دار ابن العرندس للطباعة والنشر والتوزيع، عَمان، ص١٤٣.

الغياب للمفهوم، كما قد يتبادر للوهلة الأولى، لان دي ترايسي لم يقم بنحته بعد، فالمسالة لدى العروي لا تتعلق به كصياغة لغوية، وجمع لفظي بين مفردتي "Idea" و "Logy" ،بقدر تعلقها بالمضمون الفكري الذي تتضمنه، أي بالمفهوم العام لما تكشفه هذه الدلالة، أي كرؤية حاجبة للواقع رغم إدعائها أنها تتمثله بكل تفاصيله( )، فحتى لو كانت الايديولوجية حاضرة "ككلمة" بشكل أسبق على العصر الذي سيؤرشفها العروي فيه، فإن ذلك لن يعني أن الحضور اللغوي يستلزم معه الحضور "الدلالي" للسبب الذي سيقدمه العروي تبريراً لذلك، وكيما تتضح عملية التحقيب المرحلي التي قدمها، فبالإمكان تشخصيها إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل الايديولوجية:

يعتقد عبد الله العروي بإستحالة عملية إسناد أو إرجاع مفهوم الايديولوجية لما قبل القرن الثامن العشر الميلادي، أي أن طيلة القرون السابقة على هذا القرن تشكل مرحلة ما قبل الايديولوجية، يقول العروي" لا يصح لنا أن نعزو المفهوم إلى عصور سابقة للقرن الثامن عشر الغربي، قد نجد بالطبع ملاحظات تؤلف نظرية شبيهة بنظرية الأدلوجة [الإيديولوجية]، وكلما احتدت الصراعات في مجتمع ما كثرت تلك الملاحظات، لكن النظرية التي نستخرجها من آراء متفرقة هي من صنعنا نحن بعد أن تشبعنا بالفكر النقدي، إن الفكر السابق للقرن الثامن عشر لم يبدع المفهوم لأنه لم يكن في حاجة إليه"( )، فالعروي يرى أن حضور بعضْ تمثلات المفهوم في هذا الزمان[٢] أو ذاك لما قبل القرن الثامن عشر لا ينبغي أن يجعلنا نقر بوجود المفهوم بترميزاته المعروفة لدينا الآن، بعبارة أخرى، لا ينبغي الخلط بين وجود مفهوم ما، وبين الموروثات المستحضرة التي يمكن أن تُستحضر كبوادر أولية وليس كوجود تام للمفهوم، نفس الشيء يقال بالنسبة للكثير من المفاهيم السياسية، كالديمقراطية والاشتراكية والرأسمالية وغيرها، إذ بالإمكان "أن نجد في التاريخ لمرحلة ما قبل نضوج التجربة الديمقراطية الليبرالية في الغرب الكثيرَ من المؤشرات والموروثات التي مارسها الغربيون القدامى، لكن هذا لا يعني أنها كانت ديمقراطية بالفعل، فتجارب من قبيل "دولة

(Stephen Fisherman, op.cit, p213.)

[٢] عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص١٧.

المدينة **The City State**" كانت فيها بوادر لنشوء الديمقراطية في بعض مفاصلها، لكن هذا لا يعني أن نقول أن الديمقراطية الليبرالية نشأت بشكل تام في اليونان"[١]، نفس الشيء يقال للمفاهيم التي من ضمنها الايديولوجية، من هنا أكد على العروي على "التشبع بالفكر النقدي"، وكأنه يريد أن يؤكد على أن وجود المفهوم، وبعيداً عن إشتقاقاته اللغوية، وجِد بعد أن تم إدراك المضامين الفكرية التي إنطوى عليها المفهوم، أو لنقل، بعد أن تم تشخيص المفارقة والمباعدة بين الفكر والواقع بشكل أكثر دقة.

وحتى يدعم العروي تحقيبه لهذه المرحلة، يورد بعض الأمثلة عليها، حين يشير إلى أن الإرث الأفلاطوني، ويعني به مجمل التراث اليوناني، كان يؤمن بإمكانية إدراك الواقع بشكل تام وصحيح ما دامت الذات المدرِكة سليمة الحواس، تامة العقل، فأن حصل وإختلف اثنان في شيء ما، فهذا يعني أن احدهما على صواب، والثاني على خطأ، يقول العروي" إذا اختلف شخصان في حادثة واحدة، وكان احدهما صحيح العقل كامل الحس، فلا يخلو أن يكون الآخر إما مريضاً أو مستعبداً، لا وجود في هذه النظرة للازدواجية في المفاهيم وللإبهام في الأشياء، يتلخص مشكل عدم مطابقة الواقع في مسالة اضطراب الآلة الإنسانية"[٢]، إذ أن العقل اليوناني كان يؤمن بإمكانية الوصول إلى الحقيقة بشكل تام، ما دامت المقدمات التي توضع للوصول إلى هذه الحقيقة مقدمات سليمة[٣]، وبعد أن إعتقد العروي انه شخّص الخلل في التراث اليوناني بجملته، وكونه عاجزاً عن فهم وإدراك مفهوم الايديولوجية لعدم حاجته إليها، يَتجه بعدها إلى التراث الإسلامي، عامداً إلى تقديم ما يدعم غايته وإن كان التشخيص هنا سيختلف إلى حدٍ ما، يستحضر العرويُ أبا حامد الغزّالي (١١١١-١٠٥٨م) كإنموذج عن التجربة الإسلامية، ليشير إلى أن الغزّالي كان يؤكد "إن مجانبة الفكر للواقع لا يعود إلى خلل في أدوات الإدراك والحواس، فهذا الأمر موجود، لكنه ليس المحوري، بل

٢

---

[١] (Adam Meacham, An Introduction in Western Political Thought, 2nd Edition, New York Printing Home, 2001, p15.

[٢] عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص١٨.

[٣] إحسان مؤيد، العقل، مقدمة منهجية في طرق الاستدلال، ط١ ٢٠٠٥، دار المهجة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص٤٣.

المحوري يكمن في النفس البشرية التي تدفعها الغواية إلى اتخاذ الأفكار الخاطئة والمجانبة للصواب، فالحقد والغل والغواية والأمراض النفسية الأخرى هي التي تبعد الإنسان عن الوصول إلى الحقيقة مهما كان عقله سليماً، وحواسه لم يصبها الخلل"[٢]، أما إن تسامى الإنسان على هذه المعرقلات والكوابح، حينها يكون الوصول إلى الحقيقة أمراً ميسوراً، ليؤكد العروي على أن رؤية الغزالي/كإنموذج عن التراث الإسلامي تتفق مع الإرث اليوناني في النتيجة، وإن كانت تخالفها في السبب، ليتوصل العروي من ذلك أن هذه المرحلة شكّلت مرحلة ما قبل الايديولوجية لان العقل الجمعي لم يكن بحاجة إلى هذا المفهوم الإشكالي في جوهره.

ثم يعمد العروي إلى الإشارة إلى فلسفة الأنوار وما شكلته من وقع صاخب على الحياة الفكرية في الغرب، فالجديد في هذه التجربة أنها شهدت صراعاً بين الكنيسة والفلاسفة، بين الدينيين واللادينيين، أي بين رؤيتين متعارضتين يقف كل منهما على أرضية مختلفة عن الآخر، بخلاف الصراعات التي كانت مشهودة في تلك المرحلة، كصراعات السنة والشيعة، أو صراعات البروتستانت والكاثوليك، فهؤلاء يقف كلاهما على الأرضية الدينية المشتركة رغم تفارقهما الذاتي، بينما مع الأنوار اختلفت الأمور، فالصراع أضحى بين الديني واللاديني[٣]، فأسباب الانحراف الفكري؛ عند مفكري الأنوار، لا يعود إلى الشيطان كما كانت الكنيسة تردد، وإنما إلى حب السيطرة والتسلط الذي يهيمن على نظام الإقطاع بالتعاضد مع الكنيسة، هكذا نظر مفكرو الأنوار للمسالة، ورغم جِدّة ما فعّلته فلسفة الأنوار إلا أنها ظلت حبيسة المعوقات الفكرية التي تصد طريق تأصيل مفهوم الايديولوجية "كونها تلقي أضواء البحث على حب السيطرة [كدافع جوهري للاختلاف وللافتراق بين الفكر والواقع]، وهو دافع إنساني صرف، وتراه كعامل ماضٍ لا كعامل حاضر يتجدد بتجدد الأجيال، فهي تحارب آثار ذلك العامل لا العامل ذاته، وتسمي تلك الآثار ظروفاً"[١].

---

[٢]() عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص١٩-٢٠.

[٣]() موسى طرابلسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠١.

[٣]() عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص٢٤.

هكذا يتوصل العروي على أن "مرحلة ما قبل الايديولوجية تهيمن عليها فكرة البحث عن السبب في "الآخر" وان "الأنا" بريئة، هذه البراءة متأتية من سلامة الفكر وإمكانية التواشج بين فكر الأنا والواقع[٣]، لكن ما يُلاحظ على تحقيبٍ العروي لهذه المرحلة هو أنها مغرقة في الإختزال والتعميم المفرطين في الوقت نفسه، فهو من جهة يختزل كل التراث اليوناني رغم تعدد مشاربه وإتجاهاته في فكرة "سلامة الحواس والعقل" وكأنه يجمع بين أفلاطون أرسطو رغم ما بين منهجيهما المعرفيين من تباين، يجمعهما في درجة واحدة، فضلاً عن غيرهما من المدارس الفكرية التي زخرت بها التجربة اليونانية، نفس الشيء يُقال بالنسبة للتراث الإسلامي، فقد إختزله في أبي حامد الغزّالي، وكأن الأخير، مع ما له من مكانة مهمة ضمن خارطة هذا التراث، المعبّر الوحيد عن المسلمين بمختلف مدارسهم ومشاربهم، ثم عاد، غربياً، ليستحضر فلاسفة الأنوار كتعبير عن نهاية مرحلة ما قبل الايديولوجية بشكل إختزالي كبير، وهو حين يعمم فكرة سلامة الحواس والعقل على كل التراث اليوناني، وما ذهب إليه الغزّالي على كل التراث الإسلامي، ونفس الشيء فيما يتعلق بفلسفة الأنوار، كأنه يمارس التعميم لبعض النماذج على أنماط متنوعة من التراث، الأمر الذي يعني انه مارس الاختزال والتعميم في الوقت عينه، فكيف يمكن أن نقر بنجاحه في دراسة مفهوم الايديولوجية إن كانت مقاربته لم تخلو أساساً من إسقاطات الايديولوجية؟

المرحلة الثانية: مرحلة وجود الايديولوجية:

شكلت تجربة فلسفة الأنوار تمهيداً لانطلاق هذه المرحلة، المرحلةُ التي يبرز فيها كارل ماركس (١٨٨٣-١٨١٨م) كأول إستحضارٍ يستقدمه العروي في إشارة إلى نقد ماركس لليسار الهيغلي، الذي يتوصل فيه إلى حقيقة مهمة، وهي أن الطروحات الألمانية في وقتها طروحات "أيديولوجية" لأنها[٣]:

١- طروحات قومية تحصر رؤيتها فقط في ألمانيا ولا تتعداها لسواها، فهي لا تنظر إلى المجتمعات الأخرى، ومن ثم هي رؤية مبتسرة للحقيقة.

---

[٣] محمد علوي، مصدر سبق ذكره، ص٣٠.

[٣] عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص٣٤.

٢- إنها تنظر إلى فلسفة الأنوار كحقيقة مطلقة، رغم أن تحليلات ماركس كشف النزوع الطبقي فيها.

بعبارة أوضح، لقد كشف ماركس لليسار الهيغلي عن "الوعي الزائف" الذي يهيمن على الذات المفكرة، جاعلاً منها تضفي سمة الإطلاق على النسبي، وتَسِمُ الخطأ بالصواب، وتمارس التعميمات على كل القضايا رغم إنها لم تنظر إلا إلى جزءٍ منها، والاهم من ذلك كله، أنها "أغلفت دور التاريخ، وصيرورته، وقفزت على إنتماء كل فكرة إلى زمانها الخاص بها"[٣].

ثم يستحضر العرويُ فردريك نيتشه (١٩٠٠-١٨٤٤م) الذي نقد المسيحية ورفض فكرة الضعف والخضوع، معتبراً أن "الإنسان حيوان قبل كل شيء، ليس عقلاً يتحكم في جسم، بل هو جسم يستعمل العقل كأداة طيعة للوصول إلى أهداف غريزية"[٤]، أي أننا نعيش خدعة في تصْوراتنا حين نعتقد أن العقل عالمٌه غير عالم الجسد، بل أن الأخير هو الذي يقود الأول، والمستضعفون عمدوا إلى تأسيس مفاهيم تؤنسهم عن شقائهم الذي يرزحون تحت وطأته، فـ "العقل عاجز عن خلق أية قيمة إذا لم يرتبط بالحياة، كلما عادى الحياة لجأ إلى قيم زائفة وهمية"[٦]، هذه القيم الزائفة التي تريد أن تساوي بين الضعفاء والأقوياء بحجج عقلية غير صحيحة، هذا الوهم هو قناع "ذهني" يحجب الناس عن معرفة الحقيقة، ويجعلهم يعيشون "وهماً" من الأفكار المجانبة للواقع[٧] إذ تظهر الايديولوجية في فكرٍ نيتشه بوصفها حاجباً عن الحقيقةٌ تم تسويقه بمختلف الذرائع، ولما كان العقل تابعاً للجسد، فإن الضعفاء عمدوا إلى تبرير عجزهم بمقولات عقلية، لكنها مجانبة للصواب، هذا ما يلخصه عبد الله العروي حين يشدد على أن الايديولوجية " قناع عند ماركس يخفي قانون تقدم الشعوب، وعند نيتشه ستارٌ يبعد الحياة"[٨].

---

[٤] (Amile John, The Influence of Ideology on Contemporary Arab Thought, 1st Edition, Paris-London Corporation, 2010, p174.

[٣] عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص٣٨.

[٣] المصدر السابق والصفحة.

[٣] منيرة بن فايز، مصدر سبق ذكره،ص ٢٤٥.

[٣] عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص٣٩.

وكيما تكتمل الصورة، يعود عبدُ الله العروي إلى سيغموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩م) وتحليلاته عن الشعور واللاشعور، وان صراع الوعي واللاوعي هو العاكس الحقيقي عن طريقة التفكير، والحقائق والدوافع الإنسانية، مهما إعتقدنا أنها تقوم على المنطق الواضح والحقائق البيّنة، يدرج العروي مثالاً على الدور السياسي للإيديولوجية في تحليلات فرويد، إذ يشير إلى انتشار الدعاية السياسية، وإيمان الفرد بإيديولوجية سياسية معينة، كان الكثير يعتقد أنها تقوم على الإيحاء والتلقين والإقناع، لكن فرويد رفض هذا التحليل، مشيراً إلى انه مبني على النفس الفردية وحدها، وهذا غير صحيح، لان "الفرد، كيف ما كان، قريب جداً من أصله، أي من المجتمع الحيواني الأول وهو القطيع، لا ينفرد الفرد إلا بقسم ضئيل جداً من نفسانيته، أما القسم الأكبر فهو نفسانية جموعية مشتركة"( )، وعلى هذا الأساس حين يكُون الفرد ضمن القطيع، فإن نفسّه تكون مسرحاً لعمليتين( ):

١- التماهي مع الآخرين؛ لان الكل قلق بنفس القدر، وينتج عن التماهي التآخي والشعور بالقوة والتغلب على الوحدة والخوف والقلق.

٢- تشخيص الأنا-الأعلى في القائد، وينتج عن هذه العملية رضوخ إرادي، وتخلٍّ عن قيود العقل، وإطراحُ أعباءِ المسؤولية.

هكذا تكون الدعاية السياسية، وكذلك غيرها، ضمن النسق القطيعي، حيث يبدأ دور العقل بالتضائل تدريجياً، وربما الانعدام في بعض اللحظات، وهذا يكشف حجم الكوارث الفكرية والسلوكية السياسية التي حصلت في المجتمعات نتيجة إتباع طريقة "التماهي"، حين يتماهى الفرد مع الجماعة بغض النظر عن درجة المعقولية في متبنياتها، وكذلك عند إتباع "التفكير بالنيابة عن الآخرين" التي يمارسها الزعيم/القائد نيابة عن الآخرين، وهذه الموارد هي من أهم تجليات التفكير الإيديولوجي.

[٣]() المصدر السابق، ص٤١.

[٤]()المصدر السابق، ص٤٢.

وكخلاصة لمحورية هؤلاء المفكرين الثلاثة في إنطلاق وتمتين مفهوم الايديولوجية وبيان مقوماته، يخلص العروي إلى تقديم جدول توضيحي لأفكارهم، وكالاتي[٤]:

المذاهب/الايديولوجية	الأنوار	ماركس	نيتشه	فرويد
الفكرة	التقاليد	الأدلوجة[إيديولوجية]	الأوهام	التبريرات
حاملها	الفرد	الطبقة المسيطرة	المستضعفون	الإنسان المتمدن
حقيقتها	الإستبداد	المصلحة الطبقية	الغِلّ	معارضة الرغبة
أساسها	العقل	تقدم التأريخ	إستمرار الحياة	الطبيعة الحيوانية

يُلاحظ في الجدول أعلاه إدراج العروي للأنوار ضمن مرحلة الايديولوجية رغم انه تكلم عنها في المرحلة السابقة عليها، وذلك بسبب كونه يعتقد بأنها تمثل تمهيداً أساسياً لانطلاق مرحلة الايديولوجية، فضلاً عن كون إدراجها يشكل فرصة للمقارنة الواضحة بين ما طرحه الأنوار وما طرحه كبار من حلّل الايديولوجية من المفكرين، كما تجدرُ الإشارة إلى أن العرويَ صحيح قد أشار إلى أن تحليلات الايديولوجية أبصرت النور مع القرن الثامن عشر، لكن ذلك لا يعني أنها توقفت عنده، بل تعدته إلى القرون اللاحقة، الأمر الذي دفعه –العروي– إلى الاستمرار في إيراد النماذج الفكرية لجملة من المفكرين الذي نظّروا للإيديولوجية ونقدوها، لكن تبقى المحورية لمن تم إيراده في هذا البحث، وأيضاً يمكن القول أن العروي قد عمدَ إلى تحليل مفهوم الايديولوجية وقاربه ، بشكل تفصيلي، كـ "قناع" و كـ "رؤية كونية" وكـ "معرفة"، كل ذلك بغية تسليط المزيد من الضوء على هذا المفهوم الإشكالي إلى حد بعيد.

(المبحث الثالث)

مفهوم الايديولوجية والنقد السياسي عند عبد الله العروي

كيما تتأكد مقولة الإنتماء الجوهري لمفهوم الإيديولوجية إلى حقل الفكر السياسي، بوصف الأخير احد المجالات النظرية للعلوم السياسية، فإن العروي حين يقارب الترسيمات المتعددة لهذا المفهوم، لا يُخفي تأكيده على دور هذا المفهوم المحوري في المناظرة السياسية واجتماعيات الثقافة، بل إنه يرى أن هذا الدور هو

[٤]() المصدر السابق، ص٤٣.

الرئيس الذي تشترك فيه مختلف الترسيمات النظرية التي قدمها، على تعددها وتباينها وتنوع مشاربها[ ]، الأمر الذي يعني أن الايديولوجية في جوهرها تنتسب للسيّاسة وللحقل الاجتماعي بسياقه الثقافي، وكأنه يود تركيز وجود مدخلية خاصة لهذا المفهوم في فهم العروي للنقد السياسي، وربما يمكن إبراز هذه المدخلية من خلال التركيز على مفهومي "التاريخانية" و "القطيعة الابستمولوجية/المعرفية، فعلى مستوى الأول، قادت الوثبات المتسارعة في المجالات الإنسانية، خاصة تلك المتعلقة بعلاقة عملية الإدراك والسلوك الاجتماعيين بالتأريخ، وإنعكاس الأخير على آلية التعامل مع السلطة السياسية، قادت إلى إعادة النظر بالتاريخ نفسه ومديات حضوره في الوعي الاجتماعي "الحاضر"، ومن ثم إنعكاس هذا الحضور على التصور المستقبلي للمجتمعات البشرية[ ]، وقد برز مفهوم " التأريخانية" في سياق هذه الوثبات التي وجدت تشخيصاتها في مرحلة الحداثة، ونضوجها وإنتعاشها في مرحلة ما بعد الحداثة[ ]، وتأتي التاريخانية لتؤكد أهمية النظر إلى المنجز الإنساني للمجتمعات المتنوعة ضمن سياقها التاريخي، وصعوبة تعدي هذا المنجز للحظته التاريخية[ ]، هذه الأهمية التي يستخدمها العروي في تحديده لمدخلية مفهوم الايديولوجية في النقد السياسي حين يثبت أن الايديولوجية لا يمكن فهمها خارج نطاق التاريخ الذي نشأت فيه، كما لا يمكن إستيعاب المضامين التي تتلبسها إلا بالرجوع إلى المحتوى التاريخي لها، وتقديم نظرة تاريخانية لها، تقوم عبر آلية التجاوز المرحلية بعد استنفاد المفهوم لأهدافه وغاياته، بعبارة أخرى، إن مفهوم الايديولوجية على علاقة وثيقة بالتاريخانية طالما أن الأخيرة هي التي تدفعه إلى تقديم نظرة نسبية للأولى في سياقها التاريخي/النسبي[ ]، فضلاً عن أن العروي يرتكز في منهجه المعرفي، بشكل عام، على التاريخانية التي

٥

[٤] عبد الله العروي، مفهوم الإيديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص١٠٤-١٠٥.

[٣] (William D. Heart, An Introduction in Social Science, 2nd Edition, Frankfort Corporation Institution, 1999, p26.

[٤] محمد عبد المجيد العالم، دراسات في الفكر العربي- مجموعة مقالات وبحوث ودراسات،ط١ ٢٠١٢م، د.ن، بغداد، ص١٤٣.

[٤] المصدر السابق، ص ١٤٦.

[٤] محمد علوي، مصدر سبق ذكره، ص٣١.

يمكن أن نقول عنها، وفقاً لأحد الباحثين "دعوة تبناها العروي وشكلت لب تفكيره"[٤٧].

ولعل هذا هو الذي دفع بالعروي إلى أن يجعل التاريخانية حاضرةً دائماً في نقده للإيديولوجية العربية بشكل عام، والإيديولوجية السياسية العربية بشكل خاص[*****]، لكن هل التاريخانية وحدها تكفي كأداة معرفية لها مدخلية في علاقتها بالإيديولوجية في النقد السياسي عند العروي؟ نفترض أن العروي أدرك أنها تحتاج، بوصفها دالة معرفيةً في النقد السياسي، لا سيما وإنها تتقوم على تحقيب المنجز الإنساني في ترسيمات نسبية، تفرض على الناقد أن لا يتعداها وينظر إلى هذا المنجز نظرة إطلاقية، تحتاج إلى دالةٍ آخرى قام بإستحضارها تتمثل بدالة "القطيعة الابستمولوجية/المعرفية" لتشكيل ثنائية فاعلة في عملية النقد السياسي.

لقد "طرح غاستون باشلارد (١٩٦٢-١٨٨٤م) تنظيره حول القطيعة الابستمولوجية كقاعدة في دراسة (تأريخ العلم)، إذ يرى أن تطور العلوم يخضع لثورات ونقلات تَجِبُ كلُ مرحلةٍ ما يسبقها من مراحل الارتقاء، تضمن إيجابيات المراحل السابقة بحيث تستغني عنها"[٤٨]، أي أن التطور الإبستمولوجيّ في المرحلة للاحقة يفرض تَضَمنَ للسابق باللاحق، مع توفر المرحلة اللاحقة على الجديد، الأمر الذي

[٤٧] محمد نور الدين جباب، إشكالية الهوية والمغايرة في الفكر العربي المعاصر، أطروحة دكتوراه فلسفة (غير منشورة)- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر ٢٠٠٦م، ص٦٥-٦٦.

* **** يظهر النزوع التاريخاني في المتن العروي ونقده للإيديولوجية العربية بمختلف مؤلفاته، لكنها تحظر بشكل أكثر في بعض كتبه ، ككتابه "العرب والفكر التاريخي" ط٥ ٢٠٠٦م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص٧٧ وما بعدها و"الايديولوجية العربية المعاصرة" مصدر سبق ذكره، ص٩٥ وما بعدها و "أزمة المثقفين العرب، تقليدية أم تأريخية" ترجمة: ذوقان قرقوط، ط١ ١٩٧٨م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص١٠ وما بعدها بالإضافة إلى اعترافه في كتابه "السنة والإصلاح" بأنه يعتمد التاريخانية كمنهج ، وانه لا سبيل إلى العلم الموضوعي دون طرق باب التاريخانية. ينظر: عبد الله العروي، السنة والإصلاح، ط١ ٢٠٠٨م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص٦و ١٦، فضلاً عن تصريحه بأن "التاريخانية هي منهج الحداثة"، ينظر اللقاء الذي أجري معه المنشور في بداية كتاب: عبد الاله بلقزيز وآخرون، هكذا تكلم عبد الله العروي، ط١ ٢٠١٥م، نشر منتدى المعارف، بيروت، ص٢٣.

[٤٨] محمود إسماعيل، القطيعة الابستمولوجية بين المشرق والمغرب، حقيقة أم خرافة؟، ورقة بحثية مقدمة إلى مؤتمر (التراث بين القطيعة والتواصل)، أبحاث المؤتمر الرابع لإقليم شرق الدلتا الثقافي في مصر، إعداد: محمد عبد الله الهادي، نشر في ٢٠٠٥م، على الانترنت: www.nashiri.net.

يجعل من المنهج السابق عاجز على المجاراة والمواكبة، وهو ما يقود إلى إلزامية تعديه عبر تقرير القطيعة معه، وهذا ما أدركه العروي، ونظّر له، حين شدد على أن عملية نقد الايديولوجية السياسية لا يمكن أن يتحقق إلا حين النظر إلى السابق نظرة تاريخانية تستوجب قطيعة معه، وعلى هذا الأساس آمن العروي أن تطوير العقل العربي، خاصة في جنبته السياسية، يتطلب نقد طريقة التفكير التي فقدت قدرتها على المجاراة، طالما "إن العرب ما زالوا يقفزون على مقررات نسبية التاريخ، ويرفضون إعتماد التاريخانية كرؤية قطيعية تستهدف تنكر الماضي والتفكير جدياً في المستقبل"[٤]، وهكذا تكون التاريخانية والقطيعة الابستمولوجية مع التراث عند العروي أمراً يقتضيه منطق التاريخ والسياسة، ولا يمكن النكوص عنه في محاولة إجراء نقدٍ سياسي فاعل يستهدف إعادة قراءة التجارب السياسية قراءةً ديناميكية وفقاً لأحد الباحثين[٥].

بيد أن المنهج التاريخاني والقطيعة الابستمولوجية مع التراث التي عشّقها العروي بمفهوم الايديولوجية ومدخليته بالنقد السياسي، وإن كانت تهدف إلى البحث عن إنفراج للازمات الفكرية الخانقة التي تهيمن على العقل العربي، جاعلةً منه يرزح، منذ غير قليل من الزمن، تحت وطأة فوضى التخلف والتراجع وغياب التفكير النقدي، إلا أنها لا تعد بحلٍ ناجزٍ لهذه الأزمات طالما أن دعوة العروي القطيعية، إن جاز التعبير، هي دعوة لإقامة قطيعة "كبرى مع التراث" على حد تعبير المغربي إدريس هاني(*****)، لكن يبقى السؤال الأكثر حراجة: هل بالإمكان تحقيق هذا النزوع التاريخاني والقطيعة الابستمولوجية الكبرى مع التراث في سياق المقاربة العروية لمفهوم الايديولوجية؟ قد تكون الإجابة بنعم يسيرة للوهلة الأولى، لا سيما وان العقل العربي

---

[٤] منيرة بن فايز، مصدر سبق ذكره، ص٢٥٠.

[٥] نبيل بو قرة، عبد الله العروي ونقد الفكر الإيديولوجي، مجلة (نحو فكر معاصر) العدد ٢١ ٢٠١٥، الجزائر، ص٥٨.

* ***** يقسم أبرز المشاريع النقدية العربية المعاصرة وقطيعتها مع التراث إلى ثلاثة نماذج:

١- القطيعة الكبرى مع التراث / إنموذج عبد الله العروي.

٢- القطيعة الوسطى مع التراث / إنموذج محمد آركون.

٣- القطيعة الصغرى مع التراث / إنموذج محمد عابد الجابري.

يُنظر: إدريس هاني، كيف جرى مفهوم القطيعة مع التراث؟، على الانترنت: www.hesspress.net

يبحث أن أي مخرج ناجز من أزماته، غير أن هذا المخرج الذي قد يُتصوَّر انه ناجز ممكن أن يقود بدوره إلى انسداداتٍ اخطر منه! لا سيما وان تنكر التراث وفق ما يريده العروي ستجعلنا في مواجهة مع كل حمولات التراث من رمزية وقدسية، فضلاً عن أن التجربة الغربية في القطيعة، ونجاحها الفاعل في تأطير العلاقة مع الماضي، لا تعني بالضرورة إمكانية نسخها الشامل والكُلي في مكان آخر، خاصة مع تباين المحيط وتغاير الظروف.

صحيحٌ أن نظرة العروي للإيديولوجية هي نظرة لا تخرج عن نطاق التاريخ/ المجتمع كما مر سابقاً، وصحيحٌ أن هذا المفهوم فيه من الإشكالات الكثير، لكن الحل القطيعي الناجز الذي يأمل به العروي لا يشي بإمكانية سهلة، خصوصاً مع هيمنة النزوع الاختزالي في المنهج النقدي عند العروي، إذ تطغى على محاولاته للـ "نمذجة" حالة من الاختزال، تكشف عن ضاغط "إيديولوجي" (ماركسي المنهج والمضمون) مهما حاول العروي أن يلبسه بلباس المعرفة المنعتقة من أُسار التأدلج(*******). وهكذا يمكن الذهاب إلى أن إجادة العروي للمعانقة بين مفهوم الايديولوجية وثنائية "التاريخانية" و "القطيعة المعرفية" ينبغي أن لا تدفعنا لتأشير إجادته لأنموذجه التطبيقي بشكل تام.

وكيما تكتمل الرؤية، لا سيما في ضوء توظيف العروي لمفهوم الايديولوجية في النقد السياسي، خاصة في معالجة العروي لمسالة الإسلام وعلاقته بالسلطة السياسية، فيمكن القول انه لما كان مفهوم الايديولوجية يمثل تعبيراً عن حصر المدرّك بذاتيةٍ

---

* ****** على سبيل المثال، كندليل على هيمنة نزعة "الإختزال" على مقاربة عبد الله العروي، يلاحظ أنه يختزل التجربة اليونانية، مع ما فيها من تنوع، في أحد الآراء السقراطية، والتجربة الإسلامية في أبي حامد الغزالي، مع هيمنة منقطعة النظير لكارل ماركس، مرة بشكل صريح، وأخرى بشكل ضمني/مستتر (ينظر: عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص١٧-١٩-٢٠-٢٩-٣١-٣٢-٣٤-٣٥-٣٦-٤٣-٤٤-٦٠-٦١-٦٢-٦٧-٧٠-٧٢-٧٩-٨٠-٨٢-٨٣-٨٤-٨٦-٩١-٩٢-٩٣-٩٧-٩٨)، كما ويتضح النزوع الاختزالي في منهج العروي، حين يختزل مقاربة العقل العربي برمته في ما طرحه نديم البيطار وعبد الله العروي نفسه!! (ينظر: عبد الله العروي، مفهوم الايديولوجية، مصدر سبق ذكره، ص١١٧ و١٢٢).

نفس الشيء بالنسبة لسائر كتبه، لنأخذ مثلاً كتابه "الإيقوني- إن جاز المصطلح- "الايديولوجية العربية المعاصرة" فإن يعيش إختزالاً أيضاً في صور "الشيخ محمد عبده" و "أحمد لطفي السيد" و "سلامة موسى" وهكذا...(ينظر: الايديولوجية العربية المعاصرة، مصدر سبق ذكره، ص٣٩ وما بعدها).

خاصة يؤطرها طرفا "التاريخ" و"المجتمع" عبر ثنائية "التاريخانية" و "القطيعة المعرفية"، فإن أي نقد سيعمد إليه عبد الله العروي في مقاربته لتقديم رؤية نقدية/سياسية لن يخلو بالطبع من رفض كل الاصرارات المتعددة على إخراج إستثناءات عن "النسبية المطلقة" –إن جاز التعبير– التي يعتمد عليها العروي، ونعني بالنسبية المطلقة تلك الرؤية التي تجعل النسبية في كل شيء، بشكل يمكن معه من النظر إلى ذات النسبية بشكل مطلق، أي لا يمكن استثناء أي شيء من النسبية.

من هنا تعمّد أن يعيد قراءة عملية تَشكّل "السُنّة" بوصفها الطريقة التي نشأ وفقها العقل الإسلامي في قراءة المتن الأساسي "القران الكريم"، ليدخل العروي في صلب الإشكالية حين يعود إلى عملية فهم النص الديني، وتأريخ الأنبياء، ويختمها بالحديث عن النبوة الخاتمة للنبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم)، والصراع الذي حصل بعد رحيله، والإنقسام المذهبي، والفهومات المتعددة للأصل الواحد في كتابه "السنّة والإصلاح"( )، إذ يعتقد العروي أن القراءات التي أنتجها العقل الإسلامي، بتشكيلاته كافة من متكلمين وفقهاء وفلاسفة ومتصوفة، تبقى محاولات خضعت في سياقها العام إلى ظروفها التاريخية، ومحيطها الاجتماعي، ليؤكد على خضوعها للمنحى التاريخاني، وضرورة إخضاعها للقطيعة الابستمولوجية، بعبارة أخرى، أنها قراءات آيديولوجية يجب النظر إليها في هذا الإطار( )، ولما كانت إيديولوجية فهذا يعني أنها لا تتعدى نطاقها الزمكاني الذي نتجت فيه، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يُصار إلى سحبها إلى العالم المعاصر وتسويقها بوصفها حلاً لواقع المجتمع العربي، إذ يشدد العروي على "أن السنة تَكوّنٌ مستمر"( )، هذا التكوّنُ الذي لا نهاية لهُ، ما دام الواقع يتغير ويتطور، ولا يمكن إلزام الآخرين بما حصل في الفترات السابقة، بالحيثيات الكلية لتلك الفترات، طالما أن الايديولوجية في ذاتها لا تنعتق من النسبية( )، ثم ليعود العروي ليؤكد على أن "السنة التي تتجدد على رأس كل قرن كما يروى، أي تُحرر من

٥

٤

٥() عبد الله العروي، السنة والإصلاح، مصدر سبق ذكره، ص١٢٩ وما بعدها.

٥() عبد الله تركماني، عبد الله العروي والنقد المعاصر، مجلة "منبر إبن رشد" عدد ١٥، ٢٠١٠م، المغرب، ص١٥٤.

٥() عبد الله العروي، السنة والإصلاح، مصدر سبق ذكره، ص١٩١.

٥() محمد بسيوني، التاريخانية في الفكر العربي المعاصر، ط١ ٢٠١٥م، نشر مؤسسة الأمل، بيروت، ص٥٣.

الشوائب، هي بالطبع غير السنة السابقة عليها، وهي بالمعنى الحرفي، سنة مبتدعة، أو لنقل في إستعمال اليوم، نيو–سنة"[٥]، وكأن العروي يريد أن يشير إلى أن التغير الذي يطرأ على السنة ضمن صيرورتها التاريخية يحيلها إلى تبدل كُلياني في دالة المجال السياسي على الأقل، الأمر الذي ينفع غايته في الدعوة إلى ممارسة القطيعة الكبرى معها.

لكن أليست هذه رؤية مبالغة إلى حدٍ ما، أن تؤدي المقاربات المعرفية، التي تشخص المدلول الإيديولوجي في جوانب عديدة من معطيات التراث الإنساني، إلى التنكر لكل التراث مع ما فيه عناصر ايجابية؟ قد يبدو هذا السؤال ساذجاً إلى حدٍ ما حين تتم الإجابة بأن هذا النقد لم يكن ليعني إغفال الايجابيات التراثية، بقدر ما يعني أن المرحلة اللاحقة تتضمن ايجابيات السابق مع تطورات أخرى جديدة على هذا السابق، لكن المحصلة النظرية إن تأملناها إلى الأخير، خاصة في خضم عدم وجود محددات نظرية لما هو إيجابي وغير إيجابي، وبالأخص حين تعلق الأمر بحيزين معقدين جداً، ألا وهما حيزا الدين والسياسة، إن تأملناها ستقود إلى حالة هُلامية من الإجتزاء التاريخي، فالتاريخ أعقد من أن تُبسط عملية انتقاء بعض لحظاته، والدين أعمق من أن يتم التوصل إلى حل لما يمكن تركه منه، وما يمكن استحضاره، والسياسة تتشابك فيها كل الأوراق، وتتداخل ضمنها كل المصالح والاتجاهات، وهكذا قد نكون أمام حالة من النكوص الارتدادي ضد المقترح الذي يقدمه العروي، ولطالما تذرعت الحركات الأصولية المتشددة بأن دافعها الأساس لإحياء الطقوسية، وإقحام الدين في كل تفاصيل السياسة سببه رغبة البعض في إقصاء الدين من كل شيء كما يقولون، ولعل الحل يكمن من وجهة نظرنا في ضربٍ من ضروب الوسطية والاعتدال في التعامل مع هذه القضايا المعقدة، فلا التفريط فيها من منطلق التاريخانية المتغولة والقطيعة الكبرى، ولا الإفراط بها من منطلق التشبث بالتراث.

وربما يمكن أن نُجمل التصور العام على ما طرحه العروي في انه يرى أن لمفهوم الايديولوجية مدخلاً اساسياً في النقد السياسي، خاصة وان هذا المفهوم يُسهّل عملية

[٥]() عبد الله العروي، السنة والإصلاح، مصدر سبق ذكره، ص١٩٢.

النظر إلى كل المعطيات الذهنية والواقعية/الخارجية من منظار أنها نتاج لرؤية إجتماعية/تاريخية يصعب تعميمها على كل الاجتماعيات والتواريخ.

الخاتمة:

شكّل هذا البحث محاولة لتقديم مقاربة تحليلية لأحد المساعي الجادة، رغم ما عليها من ملاحظات، التي قدمها أحد المفكرين العرب المعاصرين، وهو مسعى ينطلق من أن لمفهوم الايديولوجية أهمية خاصة في التفكير والسلوك السياسيين، وفي أية تجربة معرفية تهدف إلى إعادة قراءة المنجز الفكري السياسي المقدم من قبل المجتمعات الإنسانية، ولما كان هذا المفهوم مغرق في إشكالاته، ومتعدد في دلالاته، ومتكثر في مجالات إستعماله، تم الرجوع إلى الآلية/الميكانزم التي إعتمد عليها العروي في تفكيكه لهذا المفهوم، ومن ثم تتبع الكيفية التي وَظَّفَ فيها المفهوم في النقد السياسي، وأي يكن ما سُجلناه على العروي بخصوص هذا المفهوم، فإن ما قدمه جديرٌ بالدراسة والتحليل؛ كونه قدم رؤية تستحق الوقوف عندها وتحليلها سعياً وراء إيجاد المحددات العامة لمفهوم إشكالي ومعقد كمفهوم الإيديولوجية.

ملخص البحث:

يسعى هذا البحث الى دراسة مفهوم الايديولوجية بإعتباره واحد من المفاهيم السياسية المهمة عند المفكر المغربي عبد الله العروي، وقد تم تقسيم البحث الى ثلاثة مباحث، في المبحث الاول تمت دراسة دلالة المفهوم ومجالات استعماله، اما في المبحث الثاني فقد تم التعرض فيه الى مراحل مفهوم الايديولوجية كما نظر اليها عبد الله العروي، في حين تناول المبحث الثالث العلاقة بين مفهوم الايديولوجية والنقد السياسي عند العروي، وقد تم التوصل الى ان دراسة عبد الله العروي لهذا المفهوم تمثل احد الدراسات المهمة في مجال الفكر السياسي.

Abstract:

This Research is trying to study the Concept of Ideology as a one of the most important concepts according the Moroccan Thinker "Abdullah Laroui". The plan of this research including three axes: the first one is dealing with the meaning of concept and the Fields of using, The second is specialized with stages of the concept of Ideology. Al last, the third one studied the relationship between the concept of Ideology and the Political Criticism according to Laroui's Thought. At the end of research, We concluded that the study of this concept that Laroui is did it is one of the crucial studies in the Political Thought Field.